الدرس (٠١٢) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد للّه رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فلا نزال في قراءتنا لهذا الكتاب المبارك كتاب رياض الصالحين لأبي زكريا النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وقد وصلنا في قراءتنا لهذا الكتاب إلى باب الصبر.

يقول المصنف أبو زكريا يحيى بن شرف النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

٣- باب الصبر

الصبر شأنه في الدين عظيمٌ، ومكانته علية، وسيأتي من الآيات والأحاديث التي ساقها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، ما يدل على مكانة الصبر، وعظيم فضله، وعلو مكانته.

والصبر: هو حبس النفس ومنعها.

وهو يتناول أموراً ثلاثة لا بد فيها من صبر، وهي: الطاعات، والمعاصي، والأقدار المؤلمة.

فكل هذه الثلاث تحتاج من العبد إلى صبر، فالطاعة تحتاج إلى صبر عليها حتى يفعلها العبد، ويكون من أهلها، والمحرمات تحتاج إلى صبرٍ عنها حتى يتجنبها العبد ويبتعد عنها، والأقدار المؤلمة تحتاج إلى صبر... فلا يسخط ولا يجزع، ولا يقول قولًا يسخط الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

فالمؤمن يحتاج إلى الصبر في حياته كلها: في عباداته.. في أعماله.. في تروكه.. في تركه لما نهى الله عنه، كل هذه الأمور يتحاج فيها العبد إلى الصبر، فالصبر عبودية ملازمة للعبد المؤمن في شئونه كلها.

وقد بدأ رحمه الله هذا الباب كعادته بآيات عديدة من كتاب الله عز وجل حاثة على الصبر مبينة لمكانته العظيمة.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

(قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [الزمر:١٠] ، وقال تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الشورى:٤٣]، وقال تعالى: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [محمد:٣١]. والآيات في الأمر بالصبر وبيان فضله كثيرة معروفة).

هذه الآيات التي أوردها رحمه الله، وأشار إلى كثرة نظائرها في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تدل دلالةً ظاهرة على مكانة الصبر، وعظيم شأنه، وجزيل ثوابه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن الصابرين يوفيهم الله سبحانه أجرهم لقاء صبرهم بغير حساب، وأن لهم البشارة العظيمة بكل خير، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معهم مؤيدًا وناصرًا وحافظًا ومعينًا، إلى غير ذلك من الفضائل العظيمة، والمكرمات الجزيلة التي أعدَّها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لعباده الصابرين.

وفي هذه الآيات التي ساقها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أمرٌ بالصبر، وحثٌ عليه، وبيانٌ لمكانته العظيمة، و حثٌ على الاستعانة بالصبر.. قال تعالى: (﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ﴾)، لأن الصبر يعين العبد على ملاقاة الأمور والشدائد، والقيام بالواجبات، والبعد عن المحرمات.

وفي الآيات أيضًا بيان أن هذه الحياة الدنيا دار ابتلاءٍ وامتحان، وأن الله عَزَّوَجَلَّ يبتلي العباد فيها بأنواع من الابتلاءات، بشيءٍ من الخوف، والجوع، ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات، فالإنسان عرضة لأنواعٍ من الابتلاءات في هذه الحياة الدنيا، كل ذلك يحتاج من العبد إلى تحلٍّ بالصبر، لملاقاة ما يبتلى به في هذه الحياة بصبر ينال به فضل الله وعظيم موعوده ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]

الحاصل: أن الصبر له مكانة عظيمة ومنزلة علية، وله فضائل عديدة، وسيأتي وسيأتي الكثير من فضائله وما يدل على عظيم مكانته فيما ساقه رحمه الله تعالى من أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في شأن الصبر ومكانته.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٢٥- (وعن أبي مالكٍ الحارث بن عاصم الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمان، والحَمدُ لله تَمْلأُ الميزَانَ، وَسُبْحَانَ الله والحَمدُ لله تَملآن -أَوْ تَمْلأُ- مَا بَينَ السَّماوات وَالأَرْضِ، والصَّلاةُ نُورٌ، والصَّدقةُ بُرهَانٌ، والصَّبْرُ ضِياءٌ، والقُرْآنُ حُجةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُها**»، رواه مسلم).

هذا حديث عظيم جمع أمورًا عديدة، وهو معدود في جملة جوامع كلم النبي ﷺ بل هو من أجمع الأحاديث في فضائل الأعمال؛ حيث ذُكر فيه أعمالٌ متنوعة وعبادات متعددة مع ذكر فضيلة لكل منها، فذكر فيه فضل الطهارة، وفضل الصلاة، وفضل الصدقة، وفضل الصبر إلى غير ذلك. قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه لهذا الحديث من صحيح مسلم: «هذا حديث عظيم أصل من أصول الاسلام قد اشتمل على مهمات من قواعد الإسلام».

قوله: («**الطُّهُورُ شَطرُ الإيمَانِ**»). **في تفسير («الطهور») قولان:**

أولهما: أن المراد به توحيد الله وإخلاص الدين له والخلوص من الشرك؛ لأنه إذا لم يخلص لله ويجانب الشرك لم يُقبل منه عمل. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وثانيهما: أن المراد به -وهو الأقرب-: الوُضوء ويقوي ذلك أنَّ الحديث ورد في رواية له عند الترمذي وغيره بلفظ: «**الوُضُوءُ شَطرُ الإيمان**» رواه الترمذي.

والمراد بالإيمان: الصلاة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ أي: صلاتكم. فالوضوء شطر الصلاة؛ لأن الصلاة لا تُقبل إلَّا بوضوء، فصلاة بغير وضوء غير مقبولة، وعبادة بغير توحيد غير مقبولة.

ويمكن أن يؤخذ من المعنيين فائدة يشير إليها أهل العلم في تقرير التوحيد وبيان مكانته في العبادات كلها، ألا وهي أن شأن التوحيد والبراءة من الشرك في العبادات كلها كشأن الطهارة في الصلاة، فكما أن الصلاة لا تقبل بدون طهارة، ويصح أن يقال في حق من صلى بدون طهارة: إنه لم يُصل، ولو أدى أركانها وواجباتها؛ لأن الطهارة شرط لا تقبل الصلاة إلا به، فكذلك من يعبد الله بدون توحيد يصح أن يقال عنه: إنه لم يعبد الله وليس عبدًا لله؛ لأنه لا يكون المرء عبدًا لله إلا إذا أخلص العبادة لله، فعبادة بلا توحيد كصلاة بدون طهارة.

قوله: (**«وَالحَمدُ لِلَّهِ تَملَأُ المِيزَانَ»**): هذا فيه ثواب الاستكثار من الحمد، وأن هذه الكلمة المباركة تملأ الميزان؛ أي: ميزان الحسنات؛ لأن العبد يوم القيامة يُنصب له ميزان له كِفتان؛ كفة توضع فيها حسناته، وكفة توضع فيها سيئاته، والحمد لله تملأ الميزان، وهذا فيه ثقل هذه الكلمة في الوزن، وأن من شأنها أنَّها تملأ الميزان، وقال ﷺ في حديث آخر: «**كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ: سُبحَانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ، سُبحَانَ اللهِ العَظِيمِ**» متفق عليه. وهذا فيه حثٌّ على الاستكثار من حمد الله، وأن يحرص المسلم على أن يحمد الله بالكثرة، والحمد ثناء على الله وإثبات لكماله سبحانه، والله يُحمد على أسمائه الحسنى وصفاته العليا، ويُحمد على نعمه المتوالية وعطاياه المتتالية.

قوله: (**«وَسُبحَانَ اللهِ وَالحَمدُ لِلَّهِ تَملَآنِ -أَو تَملَأُ- مَا بَينَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ»**) هاتان الكلمتان كثيرًا ما يُقرن بينهما في النصوص، إما بهذه الصفة «سبحان الله والحمد لله» أو «سبحان الله وبحمده». أي: أسبح الله حال كوني حامدًا له مُثنيًا عليه، جامعًا بين تسبيحه الذي هو التنزيه، وحمده الذي هو الثناء عليه سبحانه.

والتسبيح تنزيه لله، والحمد ثناء على الله بإثبات الكمال له، والجمع بينهما جمع بين التنزيه للرب عما لا يليق به من النقائص والعيوب ومشابهة المخلوقات، وإثبات الكمال له بإثبات أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وعلى هذين الأصلين يقوم المعتقد السليم في باب

الأسماء والصفات على حد قول الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قوله: («تَمْلآن») أي: هما معًا، وقوله: («أو تملأُ») هذا شكٌّ من الراوي، أي: كل واحد منهما يملأ ما بين السماء والأرض.

قوله: («وَالصَّلَاةُ نُورٌ») أي: ضياء لصاحبها تنير قلبه، وتنير وجهه وقبره وطريقه، فهي نور وضياء، وكُلَّما عظُم حظ العبد من الصلاة عظُم حظه من هذا النور، ولهذا جاء في الحديث الآخر، وهو في المسند بسندٍ جيد أن النبي ﷺ قال: «**مَن حَافَظَ عَلَيهَا؛ كَانَت لَهُ نُورًا، وَبُرهَانًا، وَنَجَاةً يَومَ القِيَامَةِ، وَمَن لَم يُحَافِظ عَلَيهَا؛ لَم يَكُن لَهُ نُورٌ، وَلَا بُرهَانٌ، وَلَا نَجَاةٌ يوم القيامة**» أخرجه أحمد. فالصلاة نورٌ للمسلم في حياته وقبره ويوم القيامة، وإذا قُسمت الأنوار يوم القيامة على العباد كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢]، كان لأصحاب الصلاة النصيب الأوفر؛ لأن الصلاة نور للعبد في حياته ومماته، ويوم لقاء ربه، وهذا يدلنا على الفضل العظيم للصلاة.

قوله: («وَالصَّدَقَةُ بُرهَانٌ») أي: برهان على صحة الإيمان وقوته، وصلاح العبد، وقوة إقباله على الله؛ لأن المال غالٍ عند صاحبه، فإخراجه بنفس سخية، موجب للفلاح، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] وهو برهان على صدق المرء في تقربه وإيمانه.

قوله: («وَالصَّبرُ ضِيَاءٌ») وهذا موضع الشاهد من إيراد الحديث أي: ضياء لصاحبه في سيره وطريقه، وهذ الصبر يحتاج إليه العبد في جميع أموره؛ وهو منزلة عظيمة من منازل السائرين تصاحب المسلم في جميع أحواله؛ لأن الصبر الذي هو حبس النفس يحتاج إليه العبد في باب الطاعات حتى يقوم بها، فمن لا صبر عنده لا قدرة عنده على القيام بها، وكذلك المعاصي التي أُمر العبد بتركها لا يمكن تركها إلا بالصبر؛ فهو يصبر نفسه ويحبسها عن فعلها. فمقام الطاعة وعدم المعصية يحتاج إلى صبر لفعل الأولى وترك الأخرى، وكذلك

المصائب المؤلمة التي يُصاب بها من موت عزيز، أو فقد مال أو ولد، تحتاج إلى صبر على أقدار الله.

فالصبر بأنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله، ضياء لصاحبه يضيء له طريق سيره إلى الله عز وجل، ومن المعلوم أن السير يحتاج إلى ضياء حتى يواصل السائر سيره في طريقه نيرة مضيئة.

قوله: (**«وَالقُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَو عَلَيكَ»**) أي: لا يخلو حال العبد مع القرآن من واحدة من اثنتين: إما حجة لك أو عليك، وإذا عرف العبد ذلك لا بد أن يعرف متى يكون القرآن حجة له أو حجة عليه؟ حتى يفعل الأول ويترك الثاني. قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان» رواه الآجري.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]. فهذا قام بزيادة وهذا قام بنقصان.

وإذا أردتَ أن تعرف متى يكون القرآن حجة لك أو عليك، فيلزمك أن تعرف المقصود من إنزاله؛ قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما أُنزل القرآن ليُعمل به، فاتخذ الناس قراءته عملًا» رواه الآجري في «أخلاق حملة القرآن» أي: أنهم اقتصروا عَلَى التلاوة وتركوا العمل به. فالقرآن أُنزل للعمل به من العقائد والعبادات والحرام والحلال، فيكون المرء من أهله إذا عمل به؛ ولهذا جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**يُؤتَى بِالقُرآنِ يَومَ القِيَامَةِ وَأَهلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعمَلُونَ بِهِ**» أخرجه مسلم، فالذي يعمل بالقرآن هو من أهله، أما الذي يسمع آيات الله تتلى عليه أو يقرأها ولا يعمل بها لا يكون بمجرد السماع أو بمجرد القراءة من أهلها.

والله لم يوجب على عباده أن يحفظوا آيات القرآن كلها، لكن أوجب العمل به على الجميع، فالعمل بالقرآن واجب؛ وهو الذي من أجله أُنزِلَ القرآن، وبمعنى هذا الحديث قول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَرفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**» أخرجه مسلم.

قوله: («كُلُّ النَّاسِ يَغدُو، فَبَائِعٌ نَفسَهُ فَمُعتِقُهَا أَو مُوبِقُهَا»)؛ أي: كل الناس في سيرٍ من الصباح منطلقون كلٌّ في طريق وكلٌّ إلى وجهة.

لكن هذا الغدو على نوعين:

النوع الأول: يغدو بائعًا نفسه لله يرجو رحمة الله وثوابه، لا يعمل إلا بما يرضي الله متجنبًا كل ما يسخط الله؛ وبهذا البيع أعتق نفسه من عقاب الله.

النوع الثاني: يغدو بائعًا نفسه للشيطان والهوى، فكل فعله معصية، فهو في سخط الله عز وجل وغضبه.

قوله: («فَمُعتِقُهَا»)؛ أي: أعتقها من العقاب وسخط الله، فكان من الناجين؛ لأنه بهذا البيع لنفسه لله بفعل الأوامر واجتناب النواهي يكون أنجى نفسه من العقاب والعذاب.

قوله: («أَو مُوبِقُهَا»)؛ أي: مهلكها أي: مهلك نفسه، والإهلاك للنفس هو الدخول في الموبقات، وهي الكبائر؛ كقوله ﷺ: «**اجتَنِبُوا السَّبعَ المُوبِقَاتِ**» متفق عليه، وإنما سُميت الكبائر موبقات؛ لأنها تهلك صاحبها.

فالناس صنفان: معتقٌ نفسه بالطاعة وعمل الخيرات، أو مهلكها بالمعصية وفعل المنكرات، فمن عمل بطاعة الله واجتنب معصيته فقد أعتق نفسه وحررها من رق الشيطان وإن كان الأمر بالعكس فقد أوبقها، فالحرية الحقيقية هي: قيام العبد بطاعة ربه وليس بإطلاق النفس في الشهوات ترتع فيها كما شاءت، ومن كان كذلك فقد باع نفسه للشيطان والهوى باتباعهما فيوبق نفسه ويهلكها، والتوفيق بيد الله وحده.

ونسأل الله جل وعلا أن يحفظ علينا أجمعين ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأن يصلِحْ لنا دُنيانا التي فيها معاشنا، وأن يصلِح لنا آخرتنا التي فيها معادنا وأن يجعل الحياة زيادةً لنا في كل خير، والموت راحةً لنا من كلِّ شرٍّ إنه سميع قريب مجيب. وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.